

## الفصل الرابع

### الجانب الكلامي و عناية الحوفي به

جاءت عناية الحوفي بالجوانب التفسيرية مترابطة متماسكة يخدم بعضها بعضا فقد بان لنا كيف كانت عنايته بالجانب اللغوي ومدى ارتباطه بالجانب النقلي والفقهى كل ذلك للكشف عن المعنى وإبراز؛ في صورة تفسيرية متكاملة، وإذا كان ذلك كذلك ولكي تكتمل الصورة التفسيرية كان من الضروري على عالم كالحوفي أن يهتم بالجانب الكلامي ليقف بذلك أمام الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة، والتي انتشرت وتفاقم خطرهما في عصر، حتى عدّها البغدادي ثلاثاً وسبعين فرقة استناداً على الحديث المرئي عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أخبرنا أبو سهل بشر بن أحمد بن بشار الإسفرايني قال: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدثنا وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفرقت أمّي على ثلاث وسبعين فرقة"<sup>(١)</sup> تلك الفرق التي نشأت وارتقت وتشعبت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في عصر الحوفي كانت بحاجة إلى وجود من يقف أمامها ليزيد عن الأفكار الإسلامية أو يبصر هؤلاء المنحرفين دينياً بمقتضيات الدين الإسلامي، وإن كانت تلك الفرق في بداية نشأتها قد اتخذت طابعاً سياسياً بحتاً تحورت بعده إلى الطابع الديني، فبداية من العصر العباسي الأول لم تتخذ الأحزاب هذا الشكل السياسي البحت بل اصطبغت صبغةً دينيةً قويةً، وصار كل حزب سياسي فرقةً دينيةً

١ - البغدادي: الفرق بين الفرق ٩.

و صار الذين يقتتلون سياسياً يقتتلون دينياً، و بدل أن يسمى الحزب اسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي يدعو إليه تسمى اسماً يدل على المذهب الديني: كشيعة و خوارج و مرجئة، و بدل أن يتحاجوا بما ينتج من أعمالهم من مصالح و مفاصد تحاجوا بالكفر و الإيمان و الجنة و النار<sup>(١)</sup>، و حتى وصل الأمر ببعض الفرق إلى تأويل آي القرآن وفقاً لمذهبهم كما وضحناه في الفصول السابقة و التشيع لعلي و سب أبي بكر و عمر، بل وصل الأمر لغلظة الشيعة إلى تأليه الحاكم مما دعا أهل السنة للتصدي لهم و الزيد عن عقيدة الإسلام، عقيدة الإسلام إنما الأساس فيها التمسك بالكتاب و السنة استناداً لحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله و سنتي"، و الحوفي كعالم سني رأيناه يتصدى لهم و يبطل ما يدعونه، فتارة يزيد عن أبي بكر و عمر، و إن كان ذلك بطريق التلميح لا التصريح و له عذر، في ذلك فالبيئة المحيطة يحكمها الشيعة، ففي قوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> يقول و يقال ما معنى سؤالهم الهدى و هم على الهدى، فالجواب: قالوا ذلك على طريق التثبيت أي تثبت كما تقول للقائم قم حتى أعود عليك أي اثبت قائماً (... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)<sup>(٣)</sup> أي لا يوفقهم و لا يشرح للحق و الإيمان صدورهم و ربي عن علي رضوان الله عليه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كتاب الله، و كذلك رُوي عن عبد الله و رُوي أن ابن الحنفية قال: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غير، و إليه ذهب ابن جرير، رُوي عن أبي العالية قال: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ رسول الله و صاحبه أبو بكر و عمر رضي الله عنهما<sup>(٤)</sup>.

١ - أحمد أمين: ضحى الإسلام ٥/٣.

٢ - سورة الفاتحة آية ٦.

٣ - سورة الأحقاف آية ١٠.

٤ - الحوفي: البرهان ٢١/١.

فالحوفي باستناده على تلك الأقوال وجمعه بين ما روي عن علي بن أبي طالب وما قاله أبو العالية في معنى الصراط المستقيم إنما أراد أن يبيّن لغلاة الفرق أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كالمصاييح بأيهم اقتديتم اهتديتم دون سب أو تفضيل.

كما نراه في موضع آخر يكشف النقاب عن مسألة دار حولها الخلاف وهي مشكلة

"خلق القرآن" ، ففي قوله تعالى:

﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup> ، يقول: فإن قال قائل:

ما معنى قوله ﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup>

وفي أي حال هذا الأمر الذي يقضيه بقوله ﴿... كُنْ﴾ في حال عدمه فتلك حال لا

يجوز أن يؤمر إذا كان محالاً أن يؤمر إلا مأمور، فإذا لم يكن المأمور استحال الأمر كما

محال الأمر من غير أمر، فكذلك محال الأمر من أمر إلا مأمور، أم يقول ذلك له في حال

وجوده وتلك حال لا يجوز فيها بالحدوث لأنه حادث موجود ولا يقال للموجود كن

موجوداً إلا بغير معنى الأمر بحدوث عينه والجواب: أنه قال المتأولون في معنى ذلك

أقوالاً، فقال بعضهم: ذلك خبر من الله عز وجل عن أمره المحتوم على وجه القضاء لمن

قضى عليه قضاء أمر خلقه الموجودين، أنه إذا أمر بأمر فقد قدر عليه قضاءً، ومضى فيه أمره، نظير

أمره، فيمن أمره من بني إسرائيل: قال: ﴿... كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ، وهم موجودون في

حال أمره، إياهم بذلك وحتم قضائه عليهم بما قضى فيهم وكالذي خسف به وباراه

الأرض، وما أشبه ذلك من أمره المحتوم عليه فَوَجَّهَ قائلوا هذه المقالة قوله ﴿... وَإِذَا

قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٤)</sup> إلى الخصوص دون العموم. وقال

١ - سورة البقرة آية ١١٧.

٢ - سورة البقرة آية ١١٧.

٣ - سورة البقرة آية ٦٥.

٤ - سورة البقرة آية ١١٧.

آخرين: لا الآية عام ظاهرها فليس لأحد أن يحيلها إلى خصوص بغير حجة يجب التسليم بها وقالوا إن الله عالم بكل ما هو كائن قبل كونه فلما كان ذلك كذلك كانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة لعلمه بها قبل كونها نظائر التي هي موجودة فجاز أن يقول لها: كوني وبأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود لتصوير جميعها له ولعلمه بها في حال العدم، وقال آخرون: الآية وأن كان ظاهرها ظاهر عموم فتأويلها الخصوص لأن الأمر كائن إلا للمأمور وعلى ما وصفت قبل قالوا وإذا كان ذلك فالآية تأويلها وإذا قضى أمراً من إحياء ميت وإماتة حي أو نحو ذلك فإنما يقول للحي كن ميتاً أو يقول للميت كن حياً وما أشبه ذلك من الأمر. وقال آخرون: بل ذلك من الله عز وجل خبر عن جميع ما ينشئه ويكوّنه أنه إذا قضاه وخلقها وأنشأه كان ووُجد ولا قول هنالك عند قائل هذه المقالة لا وجود المخلوق، وقالوا إنما قول الله ﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup> نظير قول القائل: قال فلان برأسه وقال بيده إذا حرك رأسه أو أوماً بيده ولا يقل شيئاً، كما قال عمرو بن حمد الدوس:

فأصبحتُ مثلَ النسْرِ طارت فِرَاحُه \*\*\*\* إذا رام تطايراً يُقال له قع

ولا قول هنالك، وإنما معناه إذا رام طيراً نأقع، وكما قال لآخر:

امتلاً الحوضُ وقال قَطْنِي \*\*\*\* سلاً رُئِيْداً، قد ملأت بطني

و الحوض لم يقل. وقال آخر: فإنما يقول له أي من أجله فكأنه إنما يقول من أجل إرادته إياه "كن" أي احدث فيحدث. وابن جرير يختار أن تكون الآية على العموم لا على الخصوص ويقول: حملها على الظاهر أولى من إحالتها إلى باطن من غير برهان، وإذا كان ذلك فأمراً لله عز وجل لشيء إذا أراد تكوينه موجوداً بقوله: كن في حال إرادته إياه

١ - سورة البقرة آية ١١٧.

مكونا، لا يتقدم وجود الذي أراد إيجاده وتكوينه إرادته إياه ولأمره بالكون والوجود ولا يتأخر عنه، فغير جائز أن يكون الشيء مأموراً بالوجود مراداً كذلك إلا وهو موجود، ولا أن يكون موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود مراراً كذلك، ونظير قوله "وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ حَرُّجُونَ ﴾ (١).

نجد أن الحوفي يرى أن الآية على الخصوص لا على العموم، وهو يوضح ذلك في تعليقه على القراءة يقول: قرأ ابن عامر " فيكون " بالنصب على الجواب وقد أنكر ذلك عليه، وقالوا الكلام ليس بأمر، إذا الأمر إنما يتوجه إلى مأمور لأنه إن كان موجوداً فوجوده يغني عن أمره بالوجود، وإن كان معدوماً فلا معنى لأمر المعدوم وإنما لفظه لفظ الأمر ومعناه الخير، وهذا إنما حمله على الخصوص لا العموم كما في قوله ﴿ ... كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٢)، وفي إحياء أموات وإماتة أحياء وهذا ليس على العموم لأنه أمر للحاضر الموجود فهو خاص، ويقول: " إن المعدوم بمنزلة الموجود تقريبا لأمره؛ لأنه موجود عنده وإن كان معدوماً عندنا، وإذا كانوا قد أجزوا ما لا يعقل الخطاب ولا يتلقاه مجرى ما يعقل ويتلقى، فالمعدوم وجوده في أسرع وقت بأن تقوم مقام الموجود أولى، وإذا ساغ ذلك في الاستعمال على وجه لم يعدل به إلى ما يوجب الخطأ فيما قد صح عن إمام من الأئمة، وأيضا فقد أجازوا النصب في الواجب أنشد سيبويه لطرفة بن العبد:  
لنا هضبة لا ينزل الذل وسطها \*\*\* ويأوي إليها المستجير فيعصما (٣).

والحوفي وإن قال بالخصوص مخالفاً بذلك ابن جرير الطبري إلا أنه يناقش ذلك الأمر على طريق التعليل يقول ويسأل من زعم أن قوله ﴿ ... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

١ - سورة الروم آية ٢٥.

٢ - سورة البقرة آية ٦٥.

٣ - الحوفي: البرهان ١/١٢٥..

يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿<sup>(١)</sup>﴾ خاص في التأويل اعتلالاً بأن أمر غير الموجود غير جائز، عن دعوة أهل القبور قبل خروجهم من قبورهم - أم بعده ، أم هي خاص في الخلق، فلن يقول في ذلك قولاً إلا ألزم في الآخر مثله، وقال وأما الذين زعموا أن معنى قوله تعالى ﴿... فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ <sup>(٢)</sup> نظير قول القائل برأيه أو بيده إذا حرّك أوماً ونظير قول المثقّب العبد مخبراً ناقته :

تقول إذا درأت لها وضيبي \*\*\* أهذا ديئه أبداً وديني <sup>(٣)</sup>.

وما أشبه ذلك فإنهم لإصواب اللغة أصابوا، ولا كتاب الله وما دلت على صحته الأدلة اتبعوا فيقال لقائل ذلك إن الله عز وجل ثناؤه خبر عن نفسه أنه إذا قضى أمراً قال له " كن " أفينكرين أن يكون قائلًا ذلك؟ فإن أنكره، كذبوا بالقرآن وإن قالوا نُقِرْ به ولكننا نزعم أن ذلك نظير قول القائل : قال الحائط فمال، ولا قول هنالك وإنما ذلك خبر عن ميل الحائط إذا أراد أن يميل أن يقول هكذا فيميل؟

فإن أجازوا ذلك خرجوا عن معرف كلام العرب، وخالفوا منطقتها وما يعرف من لسانها، وإن قالوا ذلك غير جائز، قيل لهم فإن الله تعالى أخبر عن نفسه أن قوله للشيء إذا أراد أن يقول له ﴿... كُنْ فَيَكُونُ﴾ <sup>(٤)</sup> فاعلم عباده قوله الذي يكون به الشيء ووصفه ووكدته، وذلك عندكم غير جائز في العبارة عما لا كلام له ولا بيان في مثل قول القائل: قال الحائط فمال، فكيف لم يعلموا فذلك فرق ما بين معنى قول الله تعالى ﴿... فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ <sup>(٥)</sup>، وقول القائل: قال الحائط فمال.

١ - سورة البقرة آية ١١٧.

٢ - سورة البقرة آية ١١٧.

٣ - ذكره المبرد في الكامل ١٩٣/١ شأهاً على أن الدين العادة: يقال: ما زال هذا ديني و دأبي و عادتي و ديني.

٤ - سورة البقرة آية ١١٧.

٥ - سورة البقرة آية ١١٧.

وإذا كان الأمر في قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) هو ما وصفنا من أن حال أمر الشيء بالوجود خلاف وجود المأمور بالوجود، فبيّن بذلك أن الذي هو أولى بقوله فيكون، الرفع على العطف على قوله " يَقُولُ " لأن القول والكون حالهما واحدة وقد تقدم ذكر الرفع والنصب بما يعني عن إعادته (٢).

و الحوفي في هذا الجانب تلمس خطوات ابن جرير الطبري فقال بما قال به وإن كان قد خالفه في بعض الجزئيات إلا أنه اتفق معه في جوهر القضية ليصل عن طريق البرهان إلى حسم قضية شغلت العالم الإسلامي فترة من الزمن وهي مشكلة خلق القرآن وإن كان ابن جرير الطبري لم يتعرض لتلك المشكلة بطريق مباشر بل اكتفى بتلك النتيجة وهي قوله: فمعنى الآية إذاً: وقالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه أن يكون له ولد، بل هو مالك السموات والأرض وما فيهما، كل ذلك مقرله بالعبودية بدلالته على وحدانيته وأنى يكون له ولداً وهو الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل، كالذي ابتدع المسيح من غير والد بمقدرته وسلطانه، الذي لا يتعذر عليه به شيء أراد بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه كن فيكون موجوداً كما أراد وشاءه، فكذا كان ابتداعه المسيح وإنشأؤه إذا أراد خلقه من غير والد (٣).

ولعل من يتأمل برهان ابن جرير الطبري يستدل منه عن تلك المشكلة، نرى الحوفي قد سلك طريق ابن جرير الطبري دون حرج ليصل إلى تلك المشكلة مباشرة يقول: وإذا قد ثبت بما ذكرنا من أنه أراد تكوين الأشياء وإحداثها قال لما يريد إحداثه ﴿... كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤) ففي هذا رد على من زعم أن القرآن مخلوق ويستدل على ردّ قوله إنه

١ - سورة البقرة آية ١١٧.  
 ٢ - ابن جرير الطبري: جامع البيان ٥٥٠/٢.  
 ٣ - الحوفي: البرهان ١٢٦/٢ - ١٢٨.  
 ٤ - سورة البقرة آية ١١٧.

مخلوق بقوله عز وجل قائلًا له "كن" ولو كان "كن"، وهذا يوجب أن يكون كل قول قد وقع بقول فيكون ذلك لا إلى نهاية، فلما استحال ذلك استحال أن يكون كلام الله مخلوقاً، فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون معنى قوله "أنه يقول له كن فيكون" لا أنه يقول له "كن" كما قال عز وجل ﴿... جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾<sup>(١)</sup>، معناه أن الجدار ينقض لأنه يريد أن ينقض قيل له: الجدار مستحيل أن يكون مريداً، فلذلك كان معنى إخبار الله تعالى أنه يريد أن ينقض معناه أن الجدار ينقض، والله تعالى لا يستحيل أن يكون مريداً قائلًا وإذا لم يستحل ذلك فقد وجب أنه إذا خلق شيئاً قال له "كن" في الحقيقة، كما لا يخلق ما لا يريد لأنه أخبر عن نفسه أنه يريد وأنه يقول لما يريده "كن" فيكون فإن قال: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿... قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾<sup>(٢)</sup> كما قال ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، فخبير بالكلام عن ما لا يتكلم، وما يدل على أن كلام الله عز وجل غير مخلوق أن كلامه وكان مخلوقاً محدثاً لكان الله قبل خلقه إياه وإحداثه غير قائل ولا متكلم على قولهم، والحي إذ لم يكن متكلماً كان موصوفاً بالسكوت أو الآفات التي تكون كالخرس وغيره، فلما لم يجز أن يكون الله تعالى موصوفاً بهذا وثبت أنه لم يزل متكلماً قائلًا وان كلامه غير محدث ولا مخلوق ألا ترى أن الله تعالى لا يجوز أن يكون عالماً بعلم مخلوق لأنه لو كان علمه مخلوقاً لكان قبل خلقه إياه غير عالم لكان موصوفاً بما يوصف به من لا يعلم أو باقاة من الآفات فلما لم يجز ذلك على الله تعالى عما ينسبه إليه المتبعون ما تشابه من كتابه ابتغاء الفتنة عالماً وأن علمه غير مخلوق وكذلك لما استحال أن يوصف الله عز وجل بالسكوت والآفات صح وثبت أنه لم يزل متكلماً وأن كلامه غير محدث ولا مخلوق. وأما احتجاجهم بما يغالطون به من قولهم: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)<sup>(٤)</sup>، فزعموا أن كل

١ - سورة الكهف آية ٧٧.

٢ - سورة فصلت آية ١١.

٣ - سورة يس آية ٦٥.

٤ - سورة الزخرف آية ٣.

مجعل مخلوق فهذا جهل باللغة تقول: إن الجعل<sup>(١)</sup> إذا كان بمعنى الخلق تعدى إلى مفعول واحد كقولك: وجعل الظلمات والنور، وإذا كان بمعنى وصف وسمي تعدى إلى مفعولين فجعلوه باباً واحداً و لما قرئوا قول الله عز وجل إخباراً ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾<sup>(٢)</sup> أتراهم خلقوه، وقال: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ... ﴾<sup>(٣)</sup>، والله خالق البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وما يعرف لذلك خالق غير؛ وقال ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾<sup>(٤)</sup>، ولم يقل نخلقهم<sup>(٥)</sup>.

والحوفي بهذا الأدلة التي ساقها ليرد على من قال إن القرآن مخلوق أنه من أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن كلام الله عز وجل صفة أزلية وأنه غير مخلوق ولا محدث ولا حادث، على خلاف قول القدرية في دعواهم إن الله تعالى خلق كلامه في جسم من الأجسام، وخلاف قول الكرامية في دعواهم أن أقواله حادثه في ذاته، وخلاف قول أبي الهذيل: إن قوله للشيء كن فيكون لا في محل وسائر كلامه محدث في أجسام<sup>(٦)</sup>.

١ - يبين الحوفي في قوله تعالى "يَجْعَلُونَ أَصْيَعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ" يقول و الجعل ينصرف على وجوه منها أن يكون بمعنى الانقلاب فيتعدى على مفعولين كقولك: جعلت الطين خزفاً أي قلبت عينه و يكون بمعنى الظن فيتعدى إلى مفعولين أيضاً كقولك: جعلت الرجل امرأة أي ظنا وتوهما ويكون بمعنى النوع فيتعدى أيضاً إلى مفعولين كقولك جعلت كلامي له شعراً نثراً كأنك قلت جعلته من هذا النوع و يكون بمعنى الخلق فهو بمعنى الصنع و الخلق.

راجع الحوفي: البرهان ١/٧٢.

راجع الحوفي: البرهان ١٠/١٥.

٢ - سورة الحجر آية ٩١.

٣ - سورة المائدة آية ١٠٣.

٤ - سورة القصص آية ٥.

٥ - الحوفي: البرهان ٢/١٢٨ - ١٣٠.

٦ - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ٢٠٣.

أما قول أهل السنة فهو: أنه لا يجوز حدوث كلامه فيه لأنه ليس بمحل للحوادث ولا في غيره؛ لأنه يوجب أن يكون غيره به متكلماً أمراً ناهياً، ولا في غير محل لأن الصفة لا تقوم بنفسها فبطل حدوث كلامه وصح أن صفته له أُنِيَّة<sup>(١)</sup>.

ولعل هذا القول يقودنا إلى مسألة صفات الله هل هي عين ذاته، ومسألة الصفات التي تنحصر في سبع: العلم، والحياء، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام<sup>(٢)</sup>. تلك المسألة آثارها المعتزلة فبعد أن قالوا بإله واحد، فلسفوا الوحدانية فقالوا أن معني وحدانيته أنه ليست ذاته تعالي مركبة من اجتماع أمور كثيرة، لأنه لو كان مركباً لافتقر تحققه إلى تحقيق كل جزء من أجزائه، وكل جزء من أجزائه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، والله منزّه عن الافتقار إلى الغير، فحقيقته تعالي أحدى فردية لا كثرة فيها بوجه من الوجوه؛ فليست له كثرة مقدارية كالتي للأجسام ولا كثرة معنوية كما لأشخاصنا المركبة من ماهية وتتشخص، إنما هو الأحدى ليس ذا أجزاء مقدارية ولا أجزاء معنوية<sup>(٣)</sup>.

كل ذلك قال به المعتزلة ليصلوا إلى ما بدأنا به وهو هل الصفات هي الذات نفسها أم هي زائدة عن الذات؟

لقد شاعت تلك المسألة وانتشرت ثم أقفل البحث فيها حتى كان عصر الحوفاي فأحيا أصحاب الفرق تلك المسألة وتصدى لهم أهل السنة أيضاً ومنهم الحوفاي أراد أن يقف أمامهم، ولكنه بدلا من أن يعلق الحوار معهم ترك الباب علي مصراعيه، والأحرى بعالمنا أن لا يترك الأمر هكذا أن القرآن لم يترك شيئاً إذ جعل لكل داء دواء، فتلك الصفات التي حددها العلماء بينها القرآن فالعلم والحياء والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام

١ - عبد القاهر البغدادي : نفسه ٢٠٣.

٢ - أحمد أمين: ضحي الإسلام ٢٩/٣.

٣ - أحمد أمين: نفسه ٢٨/٣.

كل ذلك ثابت في القرآن أما الكيفية فليمن يطلعنا عليها ، وكان من جوانب الحوفي كعالم سني أن يتصدي لذلك ويسلك مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وإسحاق بن راهوية وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ( ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ )<sup>(١)</sup> .

وإن يقيس ذلك علي مسألة الاستواء ، عند ما سئل مالك بن انس عن الاستواء وكيفيته فقال الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة<sup>(٢)</sup> لأن ما جاء بالقرآن واجب الإيمان به ، أما مسألة الصفات والذات وكلام الله هي ذاته أم هي غير ذلك يدخل في الكيفية التي لم يطلعنا عليها ، ولا يمكن لعقول قاصرة أن تصل إليها فالسؤال عنها بدعة لقد بين الحوفي ذلك عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٣)</sup> .

يقول الاستواء في هذا الموضع علي وجوه ، أحدهما أنه بمعني عمد وقصد إليها وقيل استوي هو معني فعله الذي هو علي غاية الإحكام والتدبير وسئل مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (سورة طه : الآية هـ) كيف استوي ، قال الاستواء غير مجهول والكيف منه غير معقول والسؤال بدعة والإيمان به واجب وأراك صاحب بدعة أخرجوا وقيل أيضاً أراك ضالاً أخرجوا<sup>(٤)</sup> . كما نراه في موضع آخر يري علي

١ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢٢٠/٢ . الثوري : ١١ .

٢ - ابن منظور : لسان العرب مادة "سوا "

٣ - سورة البقرة آية ٢٩ .

٤ - الحوفي : البرهان ١١٢/١ .

المعطلة بالأدلة العقلية ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ  
كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup> يقول: "لآياتٍ معناه لعلامات ودلالات على أن وجود  
خالق ذلك ومنشئته اله واحد، "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" فمعناه والله اعلم لمن عقل مواضع الحجج  
وفهم عن الله عز وجل أدلته على وحدانيته فاعلم عباده بأن الأدلة إنما وضعت معتبراً لذوي  
العقول والتمييز دون غيرهم فالعنى "إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ" بدليل ما أخبر ودل على أنه واحد  
فذكر خلق السموات وعظمتها وأمها سقف بغير عمد وذكر الأرض وعظمتها فيما تنزل من  
سهلها وجبلها وبحارها وما فيها من معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص وغير ذلك  
مما لا يقدر أحد على مثلها، وكذلك الرياح في تصريفها وما فيها من لواقح العذاب وغير  
ذلك وجميع ما ينبت في الأرض من دابة كل ذلك دليل على وحدانيته . فلأن قال قائل  
فانتم من المعطلة من ينكر خلق هذا ؟ الجواب : أن الله عز وجل حاج بذلك قوم مُقَرِّينَ إِنْ  
اللَّهُ خَالِقٌ غَيْرِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ (... هَلْ مِنْ  
شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِثْلَ شَيْءٍ... ) (سورة الروم : من الآية ٤٠) ففي ما عدت  
من ذلك لآيات إن كنتم تعلمون وقيل دلائل هذه الآيات علي الوحدانية أما خلق السموات  
والأرض فيدل علي خالق ليشبهه الأشياء ولا تشبهه الأشياء من مثل أنه لا يقدر علي خلق  
الأجسام إلا القديم إذ جميع المحدثات لا بد لها من محدث وأما اختلاف الليل والنهار  
فيدل علي مدبر من جهة أن محكم متقن ، وأما الفلك يدل علي مدبر منعم دبر ذلك لمنافع  
الناس ليس من جنس الناس ومن جرى مجراهم ، وأما الماء الذي ينزل من السماء فيدل  
علي منعم به يقدر على التصرف فيما يشاء من الأمور لا يعجزه شيء ، وأما إحياء الأرض

بعد موتها فيدل علي الإنعام بما يحتاج إليه العباد ، وتصريف الرياح يدل علي الاقتدار علي ما يتأتى العباد ولو حرصوا علي الحرص واجتهدوا كل الاجتهاد ، وأما السحاب المسخر فيدل علي ممسكه القديم الذي لا شبيه له ولا نظير إذا لا يقدر علي تسكين الأجسام الثقيل بغير علامة ولا دعامة إلا الله ، وكذلك وقوف الأرض فهي تدل على صانع غير مصنوع قديم لا يشبهه شيء فادر لا يعجز شيء ، عالم لا يخفى عليه شيء ، حي لا يموت ، واحد ليس كمثل شيء ، سميع بصير ، لا يعزب عنه شيء لأن صفات النقص لا تجوز عليه ويدل على أنه منعم لا يقدر غيره على الإنعام بمثله وأنه يستحق بذلك العبادة دون غيره<sup>(١)</sup> . والحوفي في هذا ملتزم بالأدلة التي جاءت في النص القرآني وهذا خير دليل علي الرد علي المشبهة وأصحاب الفرق الذين تفرقوا فضلوا عن الطريق .

كما نراه في موضع آخر أن بعض آيات القرآن دليل وحجه على من انحرف عن طريق المستقيم ، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَةِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>.

يقول : وقد تضمنت الآيات الحجة على صحة الإيمان لندم المكذب به عنده رؤية العذاب وحسرتة على ما فات من تلك الحال ، والحجة على أن الله لا يقطع أحداً عن توبة ولا يخلف وعده بأنهم لو رُدُّوا لعادوا إلى المعصية وفيها أكبر الموعظة التي تصرف عن التسويق بالطاعة ، والحجة على الدهرية باعتقادهم ما ليس في أوائل العقول من غير

١ - الحوفي: البرهان ٢٧/٣-٢٨ .  
٢ - سورة الإنعام آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

دليل فهذا حجة الله عليهم في عقابهم لأنهم اعتقدوا ما ليس في أوائل عقولهم بغير دليل منصوب عليهم ، والحجة على منكري البعث لأنهم يصرّون إلى الإقرار به في الوقت الذي لا ينفعهم فيكون وبالاً عليهم ولو تقدم ذلك منهم لنجوا من الهلاك وفازوا بالخلود في الجنان (١).

وهذا الآيات دليل علي الدهرية ومنكري العبت وهم الذين قال عنهم البغدادي القائلون بالتناسخ أصناف : صنف من الفلاسفة وصنف من السميينة ، وهذان الصنفان كانا قبل دولة الإسلام وصنفان آخران ظهرأ في دولة الإسلام ، أحدهما من جملة القدرية الأخرى من جملة الرافضة الغالية ، فأصحاب التناسخ من السميينة قالوا يقدم العالم وقالوا أيضا بإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس وإنكار أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت (٢). فهذا الآيات خير دليل عليهم .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

يرد الحوفي بهذه الآية على من أنكر أن الله غير قادر يقول: وقد تضمنت الآيات الحجة على من طلب آية غير ما أنزل الله لأن الله عزوجل قادر على تلك الآية لكنه لا ينزلها لما فيه من وجوه الحكمة بالمنع من الإفتيات على تديير الله وتشهي كل احد خلاف تلك الآية مع أن فيما أنزله غني وكفاية لمن طلب البصيرة من جهة الدلالة لا من جهة الضرورية ، والحجة على أن الله هو القادر على الإتيان بالآية كل حيوان في أرض مع أنه يرجع إلى أمة عظيمة فيحتاج إلى مدبره، وقادر بربقه ويشد خلته في أمور كثيرة لا بد له منها ولا غني به عنها ، والقادر على ذلك قادر على نصب الآيات وهو الله عزوجل (٤). والحوفي بما جاء من الأدلة بما هو ثابت في آيات القرآن الكريم التزم منهج أهل السنة والجماعة من الرد على الفرق التي انتشرت وشاعت في عصره، والأمثلة التي تؤيد

١ - الحوفي: البرهان ٣٢/١٠-٣٣.

٢ - البغدادي : السابق ١٦١،

٣ - سورة الإنعام آية ٣٧.

٤ - الحوفي: البرهان ٤٠/١٠.

ذلك كثيرة نقتصر بذلك بمثلين: ففي قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

يقول: ومعنى الآية والله أعلم البينة على معرفة الإلهية والقدرة والإيمان بهما فالموت الأول إذا كنا نطفًا لا حياة فينا فصورها ونفخ فيها الأرواح فصرفنا إحياء ثم يميتنا بإخراج الأرواح من أجسادنا ثم يحيينا لبعثنا ثم إليها نرجع إلى نرد إلى انفاذ حكمه فينا وما سبق عي علمه لنا وعلينا فدل على الحياة الثانية بالحياة الأولى ثم الموت بعدها وكان كقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ...﴾ (٣).

وأشبه ذلك مما دل به على حقيقة الآخرة والأولى ويري معنى ذلك عن أبي العالية وقد تضمنته الآية الأخبار بالحياة ولأماته والبعث بعد الأئمانه والوعيد لمن أنكر البعث والتعجب ممن أنكر القدرة علي شيء بعد إقراره بالقدرة على مثله وثبوت الحجة عليه (٤).

وفي قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٥). يقول: ويقال كيف تصح الحجة بقوله الذي خلقكم على من لا يقر

بذلك الجواب من المتفق عليه إذا كان الاختلاف فيه ليخرجه من أن يكون إذا توّمل ظهر به صحة الحكم مالم تكن شبه تصد عنه وتمنع من إدراك الحق به وعلى العاقل إذا ورّد عليه مثل ذلك أن يتأمل فإن اعترضته شبهة نظري حلها وإن لم تعترضه شبهة فسيعلم بتلك الحجة ويجد بها الثقة، وكان عاقل فإنه يجد عقله يقتضي أنه له خالقاً خلقه ومدبراً دبره، وذلك من أوكّد حجة عليه مما يلزمه، وقد قيل أن هذا الاحتجاج على مشركي العرب لأنهم يقرّون أنهم خالقاً كما قال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

١- سورة البقرة آية ٢٨ .

٢- سورة يس آية ٧٩ .

٣- سورة العنكبوت آية ٢٠ .

٤- الحوفي: البرهان ١/١٩ .

٥- سورة البقرة آية ٢١ .

فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾، وكان محمد بن جرير يقول: الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غير جائز إلا بعد إعطاء الله المكلف المعونة على ما كلفه وذلك أن الله عز وجل أمر من وصف بعبادته والتوبة من كفره بعد إخباره عنه أنهم لا يؤمنون وأنهم عن ضلالتهم لا يرجعون (٢).

وفي قوله تعالى (فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (٣).

يقول وقد تضمنت الآية التنبيه على عظيم الآية من جهة المعجزة وواضح الدلالة والبيان عن وجه المقايسة التي يشهد بها العقل مؤكداً لها بالسمع لأنه لا شبهة على عاقل في أن الذي يقدر على إحياء هذا الميت يقدر على إحياء الميت الآخر كما أن القادر على تحريك هذه المرحة قادر على تحريك تلك المرحة الأخرى لأن هذه مقايسة يستوي العقلاء فيها وهذا أفضل المقايسات التي يستوي العقل فيها بين الشئيين في الحكم (٤).

والحوفي بهذا كما قلنا من أهل السنة التزم بمنهجهم وسلك طريقهم على الرد على غلاة الشيعة وأصحاب الفرق التي ظهرت وانتشرت في عصره.

١ - سورة الزخرف آية ٨٧ .  
٢ - الحوفي: البرهان ٨٣/١ .  
٣ - سورة البقرة آية ٧٣ .  
٤ - الحوفي: البرهان ٢٢٨/١ .